

الهوية السائلة: الهوية الما بعد حداثة في ظل الأزمنة الما بعد عادية
Liquid Identity: Post-modernist Identity in Light of Postnormal Times

تاريخ النشر: 2025/04/25

تاريخ القبول: 2025/01/17

تاريخ الإرسال: 2024/05/10

بولكلوك دليلة¹، بوبكر هشام²¹ مخبر البحوث والدراسات الاجتماعية "LARES"، جامعة سكيكدة، الجزائر،EMAIL : d.bouleklouk@univ-skikda.dz² مخبر البحوث والدراسات الاجتماعية "LARES"، جامعة سكيكدة، الجزائر،EMAIL : h.boubeker@univ-skikda.dz

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى تقديم رؤى استكشافية لمسألة الهوية السائلة، حيث أصبح سؤال الهوية في السوسيولوجيا المعاصرة يُشكّل بؤرة التساؤلات المطروحة في ظل هيمنة الأنموذج التغييري للهوية. حيث نُميط اللثام عن التحولات البنيوية الجارية في الهوية، في ظل تغيّر السياقات الاجتماعية وازدياد الممارسات الثقافية الموجهة لسياق الكونية، كتبّعات للضخ العولمي وأدواته المُمنهجة، في ظل فضاء فائق التدفق تتغير بين طبيّاته سياقات الفعل والتفاعل الاجتماعيين. مما يفرض رهانات سوسيوثقافية شكّلت قطب الرّجى في السياقات التكنو اجتماعية، حيث انصاعت الهوية الصّلبة إلى السيولة اللّازمة لتتلاءم مع مجتمع الحداثة السائلة ولتنسجم مع التحولات التي مسّت جوهر المفاهيم والخطابات نتيجة انغماس الأفراد في ديناميات المجتمع الشبكي، ومحمولاته الثقافية التي غيّرت من طرق تشكيل الهويّات، وساهمت في انبعاث الهويّات السيّالة. الكلمات المفتاحية: الهوية ؛ الهوية السائلة ؛ المجتمع الشبكي ؛ فضاء التدفّقات ؛

المؤلف المرسل: بولكلوك دليلة، الإيميل: d.bouleklouk@univ-skikda.dz

Abstract:

This study aims to provide exploratory insights of the liquid identity issue, as the question of identity in contemporary sociology has become the focus of debates raised in light of the dominance of Identity Changing Paradigm. Where we uncover the identity, ongoing structural transformations, in light of modern cultural practices geared to cosmological contexts. In light of a hyper-flowing space, which imposes a socio-cultural bets in techno-social contexts, where identity has caved to the flexibility needed in liquid modernity society, and the transformations of discourses, in networking society dynamics, that have contributed to the emission of liquid identities.

Keywords: Identity; Liquid Identity; Network Society; Space of flows; Transformations.

مدخل اشكالي:

يعد مفهوم الهوية من أبرز المفاهيم اثارة للجدل في حلبة النقاش العام، حيث ما عاد الجدل في وقتنا الراهن خافياً حول قضايا الهوية ورهاناتها المعاصرة: "أزمة الهوية"، "مآزق الهوية"، "سؤال الهوية"، "إحراجات أو إرباكات الهوية"، "أوهام الهوية"، "الهوية السائلة" كإحدى مخرجات ما بعد الحداثة،...، حيث أصبحت هذه القضايا تقض مضجع الباحثين المهتمين بدراسات مسألة الهوية وقضاياها المعاصرة في ظلّ عالم مُتغيّر باستمرار، كما وأثارت جدلاً مُستفيضاً في السّياق السّجاليّ الراهن والذي لم يُحسم إلى يومنا هذا. هذه التّقاشات الفلسفيّة والمساجلات تدور حول مدى صمود الهوية الصّلبة ومدى مقاومتها للدّوبان والتميّع والسّيولة، خاصة في ظلّ التّحولات الرّاديكاليّة التي يشهدها المجتمع المعاصر، بفعل تعدّد وتنوّع الحوامل التّكنولوجيّة التي تتدفّق عبرها المضامين الثقافيّة المُقولة والمنمّطة في مشهد غرائبيّ غير مسبوق، والتي تروّج لثقافة الآخر الاستهلاكيّة. وفي ظلّ تجاذبات تشبيكيّة بين الأنا والآخر، بفعل التّدفّق الثقافيّ الكونيّ المُنبعث من منصّات عوالم الميتافيرس (Metaverse) والذي أصبح يهيمن على حيواتنا وذواتنا وعقولنا، ضمن سياقيّة انسيابية ناعمة، وبروز مجتمع المستهلكين الخاضع لمبدأ

العقلانية الرقمية، وبروز الفردانية المعاصرة...، وفي ظل تنامي الديناميات السيبرنيطيقية التواصلية المهيمنة كقوة ضاربة تنخر عُمق أي مُجتمع، والمختركة لكل الأطر الاجتماعية والثقافية التي تندرج الهوية ضمن سياقاتها. والتي ساهمت في إذابة القيم والمعايير ومختلف الأطر الاجتماعية، وتمييع سمات البنى الاجتماعية والثقافية المعيارية السائدة في المجتمع لمواكبة مسارات التغيرات الحاصلة في الوقت الزاهن.

حيث أصبح موضوع الحفاظ على الهوية الصلبة/المعيارية ومقاومة ما أفرزته مخرجات المجتمع الشبكي وأنظمتها الخوارزمية، ومدى مقاومة الهوية لقوى التغير الناعمة، وضغوط التفكيك والتذويب يثير سلسلة من التحديات والرهانات، في ظل هذا "المجتمع المفتوح" كما يُسميه "كارل بوبر"، والانفتاح التام على الثقافة الكونية المتدفقة باستمرار، والمُشبعة بمختلف أنماط السلوك والقيم والمعايير الاستهلاكية الجديدة والتي تتنافى مع الشروط البنوية المشكلة للخصوصية الثقافية، حيث أصبح الفرد يعيش حالة من الانسلاخ والميوعة والسُّيولة والدُّوبان بفعل النمط الاستهلاكي السائد المُتفاقم الوتيرة والذي بزغت مظاهره في الوقت الزاهن، والذي دفع إلى تكريس منظومة قيم كونية جديدة وأنماط سلوكية مُنفلة من الآليات التقليدية للضبط الاجتماعي وتعارض مع الهوية المعيارية القائمة على اللغة والدين (العقيدة والقيم) والموروث الثقافي (العادات والتقاليد). وأصبحت الهوية متعددة المشارب، في ظل مجتمع متعدّد الثقافات، وأصبحت تُبنى وتُصطنع في اللّايقين واللّازمان واللّامكان في ظل فضاء التدفقات السائد الذي انصهرت عناصر الهوية في رحابه.

إنّه عصر الموجة الزابعة كما أشار إليها "ألفين توفلر" عصر افتراضي تسوده حالة متنامية من اللّاثبات واللّايقين الدائم بفعل طفرة من التّحولات المتسارعة التي طالت أطر الفعل والكيونة فغيّرت من المُعطى الوجودي للذات، وغيّرت الوضع الإنساني على نحو جذري، ليتناسب مع الأزمنة الجديدة المُتغيّرة والمُتقبولة. كما غيّرت جذريا من مفهومي الزّمان والمكان ومن طرق بناء الهويّات الفردية وديناميّات الحياة الاجتماعية، القيمية والمعرفية، ومختلف التّفاعلات الاجتماعية والممارسات اليومية، نتيجة حالة الانغمار الرّقمي التي يعيشها أفراد المجتمع المعاصر، بفعل الطوفان الرّقمي الذي يغزو ويُسيطر على ذواتنا.

تَحَوُّلاتٍ مَسَّتْ مختلف الأبنية الاجتماعية وغيّرت من مصادر المعنى التقليدية، وفي كيفية إنتاج المعنى العلائقي، كما سمحت بالطُغيان على الخصوصية، وعَمِلَتْ على تَحْيِين المعايير الثقافية ومَهَّدَتْ لظهور نمط جديد من الهويات السَّائلة -كامتداد للحدثية السَّائلة وذوبان الحدود بين الذات والآخر- والتي تُبْنَى وفق سيرورة سوسيوثقافية عن طريق مختلف الآليات الدِّيناميكية التي تُبْنَى بها الدَّات عبر الفضاء الاجتماعي الفائق. هويَات أصبحت تُبْنَى على نحو متواصل وفي حركة لا متناهية، لارتباطها بعوالم تتحوّل وتتغيّر وتتطوّر باستمرار، وبسياقات اجتماعية وثقافية كونية.

وتتجلّى أهمية هذه الدراسة في كونها محاولة تقديم رؤية استكشافية لهوية ما بعد الحدثية من منظور أطروحة السَّوائل لـ"زيجمونت باومن"، وهذا من خلال:

- للـ محاولة فهم طبيعة تحول وتشكل الهوية في سياق المجتمع الشبكي.
- للـ تحليل واقع الهوية السائلة والكشف عن أبعادها وامتداداتها ومظاهرها من خلال استدعاء ترسانة التراث النظري لـزيجمونت باومن، ودراسات حديثة معمّقة.
- للـ الكشف عن الخصائص والسمات الأساسية للهوية السائلة في المجتمع.
- للـ الكشف عن الكيفية التي تتحول من خلالها الهوية إلى السَّيولة والتميّع في مظاهرها.

بناءً على هذه المُنتقلات، ومن أجل تعميق وإثراء البحث واستيعاب العناصر التي أعادت تشكيل الهوية والأبعاد التي أخذتها، طرحنا مجموعة من الإشكالات لمناقشة حيثيات هذا الموضوع:

كيف ساهمت الحدثية السَّائلة، في تغيير وتمييع الهوية المعيارية/الصَّلبة؟ ماهي مسارات وآليات تحوّل الهوية من الهوية الصَّلبة إلى الهوية السَّائلة؟ ما هي أبعاد مآزق الهوية السَّائلة؟ وما التَّداعيات والرَّهانات القائمة وراءها؟ ما هي مظاهر الهويَات السَّائلة في المجتمع الجزائري؟ وكيف يمكن للهوية أن تُحافظ على صلابتها في ظل انهيار وذوبان الأطر المعيارية التي تحكم وتضبط المجتمع في ظل النمط السَّائل للوجود؟

في هذا السِّياق، وكمحاولة لتقديم إجابات على هذه الأسئلة، تجدر الإشارة إلى أن الأفكار الأساسية التي تركز عليها هذه الدراسة في التحليل استندت منطلقاتها البحثية إلى بؤرة التقاء الأطروحات والتصورات النظرية التي قدمتها مُختلف الدراسات الغربية والعربية،

كمداخل تفسيرية لفهم معمق لظاهرة الهوية السائلة، كما استنبطنا من تحليلاتهم مُنطلقات اعتمدنا عليها في بحثنا كنقاط مرجعية:

❖ فكرة "عبد الغني عماد" حول الثقافة باعتبارها نماذج بانية للهويات، ساهمت في التحول الجذري الذي مسّ مفهوم الهوية، حيث تغيّر براديجم تشكّل الهويات وأصبحت الهوية مرنة ومتدفقة بفعل المعلوماتية.

❖ رؤية ما بعد الحدثانية للهوية "لزيجمونت باومن" "Zygmunt Bauman" من خلال التّصوّر الذي قدّمه حول سيولة الهويّات وسيولة خصائص الثقافات، كامتداد للحدثانية السائلة، -من منطلق كونها تُذيب كل ما هو صلب-.

❖ فكرة "مانويل كاستلز" "Manuel Castells" حول "مجتمع الشبكات" الذي يُشكّل مجتمع مواز للمجتمع التقليدي، مجتمع قوامه فضاء تدفقات مرن، شكّل تعارض بين الشبكة والذّات، وثقافة افتراضية مهيمنة شكّلت نمطا اجتماعيا جديداً، يُعدّ الإحساس بالهوية فيه عملة نادرة. حيث تمثل تحليلاته إطارا سياقيا لتحليلنا.

❖ فكرة "إريك فروم" (Erich Fromm) عن الإنسان المعاصر وتتجلّى في كونه أصبح يعيش حالة أزمة هويّاتية، حيث انصهرت كينونته واستُلبت ذاته وفقد الإحساس بهويته بفعل التّزعة الاستهلاكية.

❖ فكرة ضياء الدين ساردار (Diaudin serdar)، حول العيش في الأزمنة ما بعد العادية التي تتسم بالفوضى والتناقض والتّعقد والتغير السريع نتيجة التكنولوجيا والاتصالات الشبكية.

1. الهوية وتحولاتها: ثنائية الصلابة والسيولة

يرى "زيجمونت باومان" أنّه في المجتمعات المعاصرة طَفَتْ على السطح موجات مستمرة من التّحوّلات الجوهرية والمُتداخلة والمُتتالية، حيث يُعدّ تحول الحدثانية من مرحلة الصلابة إلى مرحلة السيولة من أبرز هذه التّحوّلات، التي أذابت كل ما هو صلب، وغيّرت جذريا من أنماط الحياة الفردية، وأشكال الحياة الاجتماعية، حيث ذابت وانصهرت الأبنية الاجتماعية والمراكز الصلبة التي تُحدد اختيارات الأفراد وتُرسّخ تفكيرهم وتُحافظ

على أنماط سلوكياتهم. ولم تعد باستطاعتها المحافظة على شكلها زمنا طويلا نتيجة الفعل الجارف للسيولة. (زجمونت، 2017، صفحة 25)

ففي عصر ما بعد الحدثية (الحدثية السائلة) برزت أنماط سلوكية وثقافية مُستحدثة، عمّلت مُجتمعة على تغيير جذري في أشكال وأساليب الحياة الاجتماعية واستحدثت وضعاً جديداً، يفرض بدوره التخلي عن الماضي والتوجه نحو مستقبل مختلف جذريا عن ذي قبل، نتيجة التحوّلات التكنولوجية المستمرة، وما خلفته من تحوّل اجتماعية وثقافية أثرت على أفكار الأفراد وسلوكياتهم. ووفقا لوجهة النظر هذه نحو الشكل الراهن للوضع الحديث والحياة الثقافية الحديثة، والتي تتسم بغزارة العناصر الثقافية في مُقابل خلوها من مصادر المعاني، يُلقى بالتقاليد الثقافية والعادات القديمة جانبا لصالح تقاليد جديدة كلياً. (إنغليز وهيوسون، 2013، الصفحات 205-313)

وفي هذا السياق يشير "أنتوني غيدنز" "Anthony Giddens" إلى أنّ بناء الذات يُصبح مشروعا انعكاسيا مرنا، عندما تتلاشى التقاليد والقيود الثقافية والاجتماعية والتاريخية للهوية التقليدية؛ أثناء البناء الاجتماعي لذواتنا، فاسحة المجال للأفراد لبناء هويتهم على نحو انعكاسي مرن ومتعدد، كما يُشير إلى أنّ الدافع نحو تحقيق الذات لا يمكن تأسيسه في السياقات الشخصية إلا من خلال انفتاح الذات على الآخر، حيث يتوجّب على الفرد أن يجد هويته وسط تشكيلة من الاستراتيجيات والخيارات التي توفرها النظم المجردة. وقد تبنّوا رؤا ما بعد الحدثية هذه الرؤية حول الهوية، معتبرين أنّ عناصر الهوية لا تتلقّى تلقّياً؛ فهي نتاج سيرورات إدماج الأفراد في تفاعلات اجتماعية وثقافية. وبهذا ما عادت الهوية أمرا ثابتا ذات عناصر مستقرة، بل أصبحت الهوية ما بعد الحدثية مرنة ومصطنعة وحمالة أوجه ومتحوّلة. (عماد، 2017، صفحة 208)

وتجدر الإشارة إلى أنّ مشكلة الهوية في عصر الحدثية الصلبة، كانت تتمحور حول سبل بنائها والحفاظ على صلابتها واستقرارها، كما كانت تشير إلى فعل متوجه نحو المستقبل، حيث كان بناء الهوية يتسم بالديمومة والاستمرارية والفردية والثبات. ولكنّها في عصر العولمة والشكل الراهن للوضع الحديث (الحدثية السائلة)، أضحت تمر بمأزق جديد بفعل الزخم التقني والوسائط التكنولوجية وغزو العقلانية الرقمية وهيمنتها على الحياة الإنسانية، وانهارت الشبكة المعقدة للروابط الاجتماعية التي تتشكل فيها الهوية، وإحلال

الإشباع الفوري محل إرجاء الإشباع بفعل تفاقم وتيرة الاستهلاك الذي سمح للأفراد بحرية اختيار هوياتهم من سوبرماركت الهويات وتغييرها متى ما شاءوا وهذا أضحت الهوية متعددة، متغيرة ومسألة اختيار. ولهذا يؤكد "زيجمونت باومان" على أن الخيال السوسيولوجي يحتاج إلى استحداث صور مجازية جديدة تتماشى وسرديات خطاب العولمة، حيث تغيرت الهوية في جوهرها، في عالم استهلاك الأشياء والبشر على السواء، عالم ينهار فيه كل ما هو متين ويذاب فيه كل ما هو صلب؛ من المؤسسات والأبنية والأطر الاجتماعية المرجعية للأفراد، بل ويُعاد تشكيلها، عالم تُلقى فيه أشكال الحياة التقليدية في بوتقة الصهر والتحديث القسري، المكثف والمتتالي، إنها تنصهر بسرعة تفوق الزمن اللازم لتشكيلها، فتتحول الهوية نفسها إلى عبء ثقيل يقيد الحرية والمرونة. وتُصبح الهوية عاجزة عن المقاومة اللازمة للمحافظة على ثباتها واستقرارها، أثناء مُواجهتها للمنعطفات قوى التغيير الجذابة في الأزمنة الجديدة وتحدياتها الراهنة؛ والتي تُعتبر تحول الهوية من الصلابة إلى السيولة من أبرز مظاهرها على الإطلاق، فتقوم الهوية في محاولة للحفاظ على ديمومتها وضمان استمراريتها بانتقاء أقل المنعطفات خطورة عند أقرب نقطة تقاطع من أجل تغيير الاتجاه قبل أن ينسد الطريق أو قبل تحويل مساره النهائي. وهذه صورة مجازية يستخدمها "زيجمونت باومان" للإشارة إلى ضرورة اليقظة والانتباه للخيارات الأخرى في حالة سحب الهوية المختارة من السوق أو تجريدها من قواها الجذابة (أبوجبر، 2022، الصفحات 154-160) ويؤكد "باومان" في نفس السياق على تحول الهوية الصلبة إلى هوية سائلة بقوله: "... تنتقل الحادثة من حقبة الهوية الذاتية الأصلية، مروراً بحقبة الهوية الذاتية الساخرة، ونهاية بثقافتنا المعاصرة التي يمكن تسميتها بحقبة الهوية الذاتية التجميعية، ومن ثم الانفصال المستمرين الروح الجوانية والشكل البراني للعلاقة الاجتماعية... فتصبح الهويات مجرد تذبذبات وتقلبات مستمرة". (زيجمونت، 2016، صفحة 144)

وقد تبنى "ستوارت هول" "Stuart Hall" رؤية ما بعد الحادثة للهوية، حيث يرى أنه أصبح من الصعب جداً على الأفراد أن يمتلكوا تصوراً موحداً عن هويتهم، التي أصبحت تُبنى على فكرة التعددية، تبعاً لتعدد السياقات التي يعيشونها في المجتمعات المعاصرة، حيث أصبح بإمكانهم اختيار هويتهم وتغييرها متى ما أرادوا. كنتاج للتغير السريع والحادثة

السائلة والعولمة التي أدت إلى خلق تأثيرات ثقافية خارجية. مجتمعات طغت عليها الهويات الجزئية /المتشظية **Fragmented Identities**، حيث أصبح الأفراد يمتلكون هويات متعددة، مُتشظية، مُفككة ومتناقضة في الوقت نفسه (هارلميس وهولبورن، 2010، الصفحات 100-97)

وينطلق "زيغمونت باومان" في تحليله خطاب الهوية من تمييز الفيلسوف الألماني "مارتن هيدغر" **"Martin Heidegger"** بين الشيء الجاهز المُعطى **"Vorhanden"** والشيء القابل للاستعمال والتشكيل **"Zuhanden"**. ويفترض باومان أن الحداثة الغربية تخصصت في تحويل الأشياء من مجرد الحضور الجاهز المعطى إلى الحضور القابل للاستعمال والتشكيل". (أبو جبر، 2022، صفحة 54)

وفي ضوء المقاربة الدينامية لمسألة الهوية التي تعتبر الهوية كنتاج اجتماعي للتفاعل الاجتماعي والثقافي، وتجعلها تبدو بمثابة معطى مستقل، وجوهر قابل للتطور. ذلك أنّ الهوية ليست تصوّر متجانس، وطالما هي كذلك فالفرد أثناء صراعه مع سيرورات وميكانيزمات تشكّل الهوية يتواجه بالضرورة مع مسألة الغيرية. كما أنها ليست مكتسبة بشكل نهائي، أو مهمة فردية خالصة بقدر ما هي مُحصّلة تفاعلات علائقية بُنيوية ودينامية سوسيوقافية. ووفق هذه المقاربة البُنيوية؛ تبدو الهوية كدينامية علائقية تتشكّل مكوناتها ضمن سياق سوسيوقافي تتعدّى وتُبني من مُعطياته، بحيث يُصبح الفرد "فاعلاً اجتماعياً" يتأثر ويتفاعل مع بيئة اجتماعية وثقافية، ومع نسق رمزي وعلى ضوء هذا التفاعل ودينامياته، يتبني الفرد تصوّرات وقيم ورموز جديدة آتية من أنساق رمزية خارجية، ويُساهم في تعديل خياراته وبناء ثقافته وبناء وتشكيل هويته الذاتية وإعادة تشكيلها باستمرار، وتشغيلها وتأكيداها في الوقت نفسه. (عماد، 2016، الصفحات 113-114)

2. العلاقة الجدلية بين الهوية السائلة، الثقافة والمجتمع الشبكي:

في خضم فهم العلاقة بين الهوية السائلة بأبعادها المختلفة؛ بوصفها إفراراً اجتماعياً للشبكات الافتراضية؛ بوصفها ظاهرة سوسيولوجية هيمنت على مختلف مناحي الحياة الاجتماعية وأسست للتعدد الهوياتي، كما أثّرت في الثقافة بوصفها عنصر مهم من عناصر تشكّل الهوية وارتباطها الوثيق بالهوية ورهاناتها، والتي تتشكل في جوهرها من خلال مُركّب

من القيم والمعايير المجتمعية والأنماط والممارسات الاجتماعية، وحتى نفهم جوهر الأزمة الهوياتية-السيولة- لا بُدَّ من تحليل جدلية العلاقة بين هذه المتغيرات، فالهوية لا تتشكّل عناصرها خارج السياق الثقافي والاجتماعي. وبما أنّ بناء الهوية يتشكّل في سياق علائقي، فقد انتقل هذا السياق في حدّ ذاته إلى فضاء التدفّقات الذي ولّد بدوره أنماطا جديدة من التناقضات بين الشبكة والذات، وفي خضم هذا المُعترك تبرز تمفصلات العلاقة بين الهوية والثقافة والشبكة.

ويمكن القول أنّ أهم اقتراب يربط بين نظريات ما بعد الحداثة وأطروحة المجتمع الشبكي كما تحدث عنه "دارن بارني" هو تلك العلاقة التي تنشأ في سياق التصورات المناهضة للأسس الهوياتية الثابتة. حيث يزعم مُفكرو ما بعد الحداثة وفق رؤية ابستمولوجية، عدم وجود أساس ثابت ذو خصائص محددة يُشكّل جوهر الهوية. ومن هذا المنطلق فإن الهوية تُبنى من خلال الخطاب، أي أنّه يتمّ انتاجها من خلال شبكة معقّدة من التفاعلات والعلاقات المتحوّلة والممارسات والرموز والإشارات التي تخضع لهيئات وتكوينات اجتماعية وثقافية ووفق هذه الرؤية تكون هوية ما بعد الحداثة -خلافا لما كانت عليه من ثبات وفردية وموثوقية- سياقية، متشظية، انسيابية وشديدة السيولة والتعدّد، تبعا للسياقات المتداخلة التي تُبنى فيها. (بارني، 2015، صفحة 24)

1.2 اضطراب المعايير الثقافية والهوية السائلة: أي علاقة ؟

تُتيح نظريات "جوديت بتلر" **Judith Butler** "ما بعد البُنيوية منظوراَ مناهضا للأسس المرجعية في دراسة أدائية وبناء وإعادة تشكيل الهوية، كما أنّها تُعدّ الهوية سيروية ثقافية، وليست حالة أنطولوجية للكينونة، (ليست هناك ذات جوهرية تصدر عنها السلوكيات والأفعال) بمعنى أنّ أداؤنا للهوية يُعتبر نتاجا للخطاب والعلائقية (في الفضاءات وبين أشخاص آخرين)، انطلاقا من التجارب وما تُتيحه الخطابات من علائقيات، قوالب نمطية، أنماط استهلاك وأطر معيارية جديدة للممارسة الثقافية لم تكن متاحة من قبل وما إلى ذلك باعتبارها تجارب أدائية تعمل على تشكيل الهوية. وحسب تحليلات "جوديت بتلر" عن أدائية الهوية وقابليتها لإعادة التشكيل، فإن أي اضطراب يحدث لهذه المجالات الثلاثة (الخطاب، العلائقية والمعايير الثقافية) يؤدي بصورة آلية إلى اضطراب الهوية المتماسكة وتحولها إلى هوية مُتشظية ومُتناقضة وهذا يعني أنّ تحول الذات إلى تكوينات هوياتية جديدة

يحدث في المواجهات الاجتماعية التي تُغيّر الهوية الذاتية: أي أنّ الهوية الصّلبة قد تُواجه تغير ينتج عن الانقطاع في المعايير الثقافية في النمط المعتاد للحياة اليومية، وظهور الّلامتوقع. (كوفر، 2022، الصفحات 210-211)

ووفق هذا الطرح يمكننا القول أنّ سيرورة أداء الهوية قد تتعرض لمجموعة من الاختلالات والتصّدعات عندما تتعرض الأدائية للاضطراب الذي قد ينتج بالضرورة عن التجارب الافتراضية والمواجهة مع مجتمع الشبكات الذي نتجت عنه تغيرات راديكالية وتحولات دراماتيكية مسّت مفاصل الأبنية الاجتماعية والثقافية، وأحدثت اضطراب في صلابة ومركزية وديمومة واستقرار وتماسك الهوية، حيث تحولت سلطة الخطاب في حد ذاته الى الفضاء المعلوماتي، فتغيّرت آلية اشتغاله، كما برز رأسمال رمزي افتراضي ورأسمال اجتماعي افتراضي ومنظومات رمزية سوسيوثقافية ضمن السّياق الافتراضي، فتغيّرت السّياقات الثقافية والقيم والمعايير والمواقف والسلوكيات التي تُشكّل الهوية، كما تغيّرت آليات اشتغال العناصر الثقافية تبعاً لتغير هذه الظروف الاجتماعية، حيث أُعيد إنتاج هذه المعايير الثقافية وفق ممارسات علائقية جديدة.

وما نشهده اليوم من ممارسات ثقافية مُستحدثة، أدّت إلى إعادة تشكيل الهوية وإلغاء فكرة وجود هوية مركزية ومُستقرة ذات خاصية مُحددة. حيث نجد مختلف العناصر الثقافية (عادات، تقاليد، أعراف، قيم، أفكار، رموز، معارف، مفاهيم)، ماثلة في السّياقات الافتراضية، أين أُعيد تشكيلنا ثقافياً كما أُعيد بناء ذواتنا اجتماعياً على نحو مُغاير لما كانت عليه، موجّه صوب الكونية، فتعدّدت الدّات الإنسانية وانفردت حدودها، وفق النمط السّائد السّائل للوجود بفعل تقمّصنا أنماطاً جديدة من التفاعلات الاجتماعية والممارسات التي انعكست على سلوكياتنا وأدّت الى سيولة الهوية، حيث أصبح الأفراد يُغيرون هوياتهم حسب رغباتهم، وأصبحت الهوية متعددة، مجزأة ومُتحوّلة على نحو متواصل.

2.2 التناقض بين الشبكة والدّات والهوية السّائلة: أيّ علاقة؟

"مانويل كاستلز" في تحليله للمجتمع الشبكي أقرّ أنّه في مجتمع الشبكات يتم تشكيل بنية اجتماعية جديدة، تنتج عن أنماط وديناميات مجتمع الشبكة والتفاعل بين السّياقات الاجتماعية، والتي أدّت إلى تبني براديغم معرفي جديد يتمحور أساساً حول المعلوماتية ويتّسم بالشمولية، المرونة، والربط الشبكي. هذه البنية الجديدة غيّرت من

مفهومي الزمان والمكان كلياً، إنها فضاء التدفقات والزمن الخالد؛ فضاء التدفقات هو الذي يعبر عن المنطق الاجتماعي السائد في المجتمع الشبكي (الهيمنة البنيوية لمنطقها كما يجادل في ذلك مانويل كاستلز)، هذا الفضاء الفائق يذيب الزمن ويجعله أكثر مرونة، حيث يتبدى التسلسل الزمني للأحداث ويصبح اعتبارياً يجعلها متزامنة، بما في ذلك انهيار الماضي والمستقبل إلى حاضر دائم من خلال ضغط الزمن وتجاوز تسلسل الممارسات الاجتماعية بترتيب عشوائي، والتي أصبحت تستند إلى تدفقات المعلومات (الزمن الافتراضي). كما تنقطع الروابط المكانية في فضاء التدفقات الذي يغير بشكل أساسي معنى وديناميكية الأماكن التقليدية من خلال الواقعية الافتراضية التي تمثل بنية المجتمع الشبكي والتي تتخطى الزمان والمكان (تغير السياقات الزمنية والحدود المجالية/ الفيزيقية)، حيث أن فضاء الأماكن الجديد يرتبط بفضاء التدفقات (الجغرافيا الافتراضية). (Castells, 2004, pp. 35-37)

وانطلاقاً من تحليله لبنية المجتمع الشبكي الجديد، ينصب تركيز مانويل كاستلز على التقاطع الديناميكي بين فضاء التدفقات والفضاء الواقعي- التضاد التعارض الجدلي بين الشبكة والذات-(بين منطق فضاء التدفقات ومنطق الهوية) حيث يقل تأثر الأفراد بالسياق الاجتماعي الواقعي والاعتماد التام على فضاء التدفقات على نحو متزايد، والذي يعبر عن المنطق الاجتماعي السائد في المجتمع الشبكي. وبما أن المنطق الاجتماعي السائد يتشكل من خلال الواقعية الافتراضية لفضاء التدفقات، حيث يعيش الأفراد في العالم الواقعي/ الفيزيائي و فضاء الأماكن الافتراضي، تنتج حالة من الشيزوفرينيا البنيوية (Structural Schizophrenia)، حيث يتصادم منطقان مكانيان وزمانيان مختلفان، ويترتب على ذلك حالة انفصام بنيوي، وهذا ما يؤدي إلى اضطراب جسيم في مختلف الثقافات في العالم، حيث يفقد الأفراد إحساسهم بذواتهم في ظل هذا التغير البنيوي، ويحاولون استعادة هويتهم بأشكال جديدة وإعادة تشكيل ذواتهم وفق ظروف اجتماعية وثقافية محددة تتوافق مع فضاء التدفقات الشبكية من خلال ممارسات تواصلية وتفاعلات تشبيكية تحدث من خلال التدفقات، يتبنون من خلالها ثقافة الواقع الافتراضي عبر ديناميات الشبكات الاجتماعية الافتراضية. (Stalder, 1998, p. 306)

وحسب توصيف "شيرري توركل" "Sherry Turle" فإن البيئات الافتراضية سمحت بانسيابية غير مسبقة وهويات قابلة للتشكيل والمراجعة مرارا وتكرارا، ويُنظر إلى البيئات الافتراضية بشكل عام على أنها ساحات يمكن فيها تحقيق هويات ما بعد الحداثة المجزأة، المتعددة والشديدة السيولة منحصرة عبر خطابات وممارسات ومواقف مختلفة ومتناقضة في كثير من الأحيان. إنهم يخضعون لتأريخ جذري، وهم في طور التغيير والتحول باستمرار. (Polettian & Rak, 2014, pp. 30,31)

3. الهوية السائلة وامتداداتها:

إن الهوية خلال مسارات تحولاتها وتبدلاتها وتميعها بفعل قوة الكيانات المعلوماتية والاتصالية وأنظمتها الخوارزمية وقوى التغيير الجديدة، تُنتج إفرزات اجتماعية كامتدادات لها، باعتبارها رهانات جديدة ولدتها الهوية ما بعد بعد الحداثة ومآلاتها. هذه الهوية السائلة أحدثت ارتداداتها اضطرابات واختلالات طالت مختلف البنى والأنساق الاجتماعية والثقافية السائدة، وحتى الأنساق العلائقية التفاعلية والتي تركز في مجملها حول الممارسات الاجتماعية والثقافية والقيمية والتي أضحت تتسم باللامعيارية، واضطرابات أخرى طالت الوعي والذات الإنسانية وأدت إلى غياب اليقين.

1.3 العيش في الأزمنة ما بعد العادية: زمن اللايقين المُرْمَن وتَأْرُم الروابط الاجتماعية: نحن نعيش اليوم عصر اللايقين، عصر طغت ملامحه من خلال الظروف المتغيرة والمستجدة التي تمخّضت عن فضاء التدفقات-الفضاء المعلوماتي الفائق-وتبعاته، من خلال تفكك وانصهار مختلف الأبنية الاجتماعية والثقافية الصلبة وتصدّع الوعي واليقين وهشاشة العلاقات والروابط الإنسانية، والمسار الغير عادي للعصر الراهن نتيجة التشظي الشبكي وتراخي الحدود الفاصلة بين الواقعي والافتراضي وانفتاح المجتمعات وإعادة تشكيلها من جديد.

وحسب "زيجمونت باومان" "تقوم الحداثة السائلة بتمزيق القوى الوسيطة التقليدية وسحبها، وتفكيك الروابط الاجتماعية القديمة، وإحلال محلها روابط جديدة، ورفض العادات والتقاليد. كل ذلك أدى إلى هذيان البداية الجديدة، فتبدو "إذابة كل ما هو صلب" وكأنها عملية صهر لمعدن حديد خام وصبه ليصير أعمدة

فولادية. فكل المراكز الصلبة التي صُهرت وصارت مائعة الآن تبدو مستعدة لإعادة التوجيه والصّب في قوالب جديدة حتى تتشكل في شكل جديد." (زيجمونت، الحداثة السائلة، 2016، أ، صفحة 210)

حيث تغيّرت مختلف البنى الرمزية والأنساق المجتمعية وتفككت الروابط الاجتماعية بفعل اضمحلال النزعة الفردية على العلاقات الاجتماعية التي شهدتها الأزمنة الحالية - الأزمنة ما بعد العادية-، وبما أننا نعيش حقبة الأزمنة ما بعد العادية كما يُجادل في ذلك المفكر البريطاني ضياء الدين ساردار، الذي قدّم تحليلاً نظرياً مُعمّقاً يصف فيه التغيرات الأسّيّة التي يشهدها عصرنا الحالي، عصر يشهد مرحلة انتقالية تدفعها عجلة تحولات جذرية، سريعة، مُتصلة، مُتشابكة، مُتزامنة، مُباغتة، وبعيدة المدى والتي تُعتبر خصائص رئيسية تدل على الطّبيعة الحركية للأزمنة ما بعد العادية، التي تتسم بالتناقضات، التعقيد والفضوى وهي القوى التي تُشكل هذه الأزمنة غير الاعتيادية وتحدياتها والتي تُؤدي صوب اللّايقين والتأزم، وعدم قدرة الأفراد على استعادة الوعي والقدرة على الاستيعاب في ظل توجّه الأمور نحو الغرابة العالمية، حيث تُوجّه وتُسرع التكنولوجيا والتقنيات المعلوماتية والاتصالية الشبكية الزحف ما بعد العادي. (ساردار، 2018)

ويصف زيجمونت باومان هذه الحالة بقوله: "في هذا النظام الجديد، المرونة هي الثّبات الوحيد والزّوال هو الدّوام الوحيد، والسّبيلة هي الصّلاية الوحيدة، وباختصار شديد اللّايقين هو اليقين الوحيد." (زيجمونت، 2016، أ، صفحة 23)

ففي خضمّ تغيّرات هذا المناخ العالمي الجديد الذي يعجّ بالتّقانة ووسائطها تتزعزع ثقة الأفراد بالأنماط التقليدية والسلوكيات الاجتماعية والممارسات الثقافية السائدة والأطر المعيارية القائمة (عادات، تقاليد. قيم ومعتقدات) وهذا ناتج عن إعادة هيكلة اجتماعية، ثقافية، سياسية واقتصادية خلّفت اضطرابات على مستوى فهم وتفسير أدائية التغيّر الحاصل والغير مسبوق في عالمنا المعاصر، كما تتخطّى استدلالات العقل وقدرتنا على التفكير خارج نطاق تصوراتنا (تغيّر التّغير في حد ذاته).

وحسب توصيف زيجمونت باومان "... صار التّغير في اللّحظة التاريخيّة الرّاهنة العادة الأكثر استقراراً في حياتنا الفرديّة والجماعيّة والعامل الذي يُشكّل ثقافتنا اليوميّة

والمعيشة. وبه نواجه الصدمات وننجح أو نفشل في مواجهة الإخفاقات." (زيجمونت، 2017، صفحة 12)

حيث تشعبت مسارات التغيير وموضوعاته وآلياته وتعقدت دلالاته وميكانيزماته، هذا التغيير كما سبق وذكرنا يحدث بفعل ديناميكيات القوى الناعمة الكامنة وأقنيتها المتعددة المحملة بفائض من السلع الاستهلاكية، ومنها (فضاء التدفقات السائل)، والتي تؤثر بالضرورة على حيواتنا وذواتنا، وتعمل جاهدة على تمويه واختزال رؤيتنا وإدراكنا، ومنه صعوبة توقع مآلات التغيير وأبعاده، مما يُحيل الفرد إلى عدم ادراك الواقع الذي قد يلتبس فيه فهم وتفسير ما يحدث، وعدم قدرته على استيعاب اتجاه التغيير وتشابكاته وامتداداته، وفقدان السيطرة على تبعاته بفعل السرعة المتزايدة وحتى عدم قدرته على مجابهة تأثيراته التخديرية، العشوائية والمتداخلة وتبعاته الغير متوقعة والتي جعلت من الفرد يعيش في حالة من الفوضى وتشتت الذات في ظل اللايقين المتزايد واللاوعي التام، حيث أصبح الفرد يشعر بحالة من الشلل كنتيجة حتمية للوضع السائد واضطراباته الهستيرية. التي تُنتجها السيولة - سيولة الوجود- خاصة عندما ننغمس رقميا في ثنايا مجتمع الشبكات الذي يُعتبر الاندماج في أنماط جديدة من العلاقات الاجتماعية الافتراضية والعيش في متاهة السيولة واللايقين واللامعنى مُحصلته الهائية، وهنا يُصبح غياب الوعي إشكالياً، حيث تتفكك الروابط الاجتماعية التقليدية وتتلاشى على حساب خلق نسق علائقي جديد تُعتبر الثقة مادته الخام (التدفقات العلائقية).

وهذا ما قد يُفضي الى الشعور بانعدام الامن الأنطولوجي نتيجة انعدام ثقة الأفراد في استمرار هوياتهم واستقرارها بسبب تغيرها وسيولتها، حيث يشير الأمن الأنطولوجي حسب "أنتوني غيدنز" إلى "الثقة التي يتمتع بها البشر في استمرارية هويتهم الذاتية...". ويربط "غيدنز" هذه الثقة بالممارسات الاجتماعية الروتينية. كما يقر بأن هناك بعض الجوانب المحددة التي تكون فيها مستويات انعدام الأمن الأنطولوجي في العالم الحديث أعلى مما كانت عليه في البيئات التقليدية السابقة نتيجة التحولات الاجتماعية الحاصلة في المجتمعات المعاصرة والتسارع الهائل في معدلات التغيير التكنولوجي وانعدام اليقين. (Giddens, 1990, pp. 92-105)

ويُشير "دارن بارني" في هذا السياق إلى "أنَّ الفرد ما بعد الحداثي المرن لا يسأل: من أنا؟ بل يسأل: أي تركيبة من ذواتي أنا اليوم؟ ... وما الذي يجعلني على هذا النحو دون سواه؟" (بارني، 2015، صفحة 25) حيث أصبح الفرد غير متأكد وجوديًا ممّا إذا كان ذات، أو أنّه عبارة عن ذوات متعدّدة، كنتيجة للتحديث المتتالي للذّات وتغيّرها المستمر في ظل ورشات الهوية وهذا ما قد يطرح عدّة تحدّيات أنطولوجية.

وفي هذا الصّدّد يقرّ زيجمونت باومان أنّه في خضم هذه الحياة السائلة، لم يعد باستطاعتنا التّحكم في السّرعة الفائقة التي يسير بها التّغيير، أو حتى السّيطرة عليه كما فقدنا القدرة على التنبؤ بمساراته واستقراء مآلاته واتّجاهاته. إذ تحوّلت فكرة التّقدم في الحياة السائلة التي تُعتبر بمثابة نسخة مخيفة من لعبة الكراسي الموسيقية إلى مشقّة وتهديد وخوف دائم. حياة سائلة محفوفة بمخاطر الاستبعاد نتيجة الغفلة والتّخلف عن خوض هذا المضمار العالمي ومُستجداته المُنتهية الصّلاحية، حيث صار الاستغراق في اللّحظة الراهنة يُؤدي إلى الإلقاء في سلّة المهملات والإدراج في صفوف الهالكين كنتيجة حتمية للتّخلف عن الرّكب. (زيجمونت، 2016، ب، صفحة 99)

2.3. التّحول إلى الإنسان السائل: اغتراب هويّاتي وذات مُستلبة:

يُقرّ "زيجمونت باومان" أنّه: "...في المجتمع الحديث السائل، الذي لا ينأى عن الحركة الدائبة يتم خلع وتفكيك الهويّات. فالتّدمير الخلاق موضوعة الحياة السائلة، ولكن ما يغفله هذا المصطلح هو أن التّدمير يستهدف حيوات أخرى، بمن في ذلك البشر الذين يحيون هذه الحياة (زيجمونت، 2016، ب، صفحة 23، 24)

وقد ترعرعت فكرة الانسان السائل تزامنا مع تحولات جذمورية تشهدها الحياة السائلة في أزمنتنا ما بعد العادية، والإفراقات الاجتماعية للهوية السائلة بفعل نفاذ القوّة النّاعمة إلى الذّات الإنسانية والقدرة على السّيطرة عليها. إنسان ذو بعد واحد، مُستلب الذّات، يخضع لنزعة استهلاكية مُفرطة للغاية، يستهلك بشكل مستمر كل ما هو جديد، ويعيش حالة مستمرة من التّحوّل والتّغير والتّطور غيّرت أنماط تفكيره، هو انسان الحدّثة السائلة وما خلّفته من سيولة وميوعة.

كما يؤكد "ياسر بكر" على سيولة الإنسان في المجتمع المعاصر فيقول: "فقد الانسان صلابته، ومعها إنسانيته، وهويته وثقافته.. فقد عقله التاريخي،... وانفصل عن واقعه الحضاري، وتم تغييب وعيه بوجوده على خريطة الوجود الإنساني!... تمّ تشيئته.. أصبح مجرد شيء يتم صياغته، وتصنيعه، وقولبته... لا يستطيع أن يعيش واقعه أو يتفاعل معه سوى بقوانين العالم الافتراضي، وتحت مضلة الكوخ الشبكي!!... أصبح الإنسان أسير "مجتمع الفُرجة" الذي تحوّل العالم المحسوس فيه إلى مجتمع صورة يجري فيه تسليع كل شيء". (بكر، 2022، الصفحات 296-298)

ويرى "إريك فروم" في هذا السياق أنّ التحولات الكبرى التي شهدها الإنسان المعاصر والتي غيرت الحياة الإنسانية شكلا ومضمونا ومعنى، خلقت لديه أزمة هوية، أفضت إلى تحوّل أفراد المجتمع إلى أشياء أو إلى سلعة استهلاكية، نتيجة الهيمنة التكنولوجية على جميع مناحي الحياة، وطغيان الثقافة الاستهلاكية، فاعترب عن ذاته في المجتمع الصناعي المتقدم بسبب سيطرة الآلة وهذا ما يُعرف بظاهرة التَشْيِؤ، حيث أصبح الفرد شيء جامد تُقاس وتُستمد قيمته بما يُنتجه من سلع فاضمحت قيمته وفقد الإحساس بذاته وبقيمه وتجرد من رمزيته ومبادئه، وأصبح أكثر استهلاكاً وتشْيِؤاً وأصبح يعيش فعلا أزمة حقيقية عندما أصبح مغتربا عن ذاته وخاضع لقوانين الإنتاج وهيمنة الأداة التكنولوجية. إن أزمة الإنسان المعاصر تتجلى في كونه أصبح يعيش حالة اغتراب هوياتي، فقد اغتراب عن نفسه وعن الآخرين، وأصبح يمتلك ذاتا زائفة كما يصطلح عليها إريك فروم. حيث انتُهكت ذاتيته بفعل مجتمع المنصات الذي جعل منه شخصية تسويقية، تروج لذاتهها بوصفها سلعة استهلاكية خاضعة لمنطق الاستهلاك.

وحسبه فإنّ "أزمة الهوية في عصرنا قائمة أساسا على اغتراب وتشْيِؤ الإنسان المتزايدين، وهذا لا يمكن حله إلا إلى المدى الذي يتأتى فيه الإنسان إلى الحياة ثانية، ويصبح فعلا مرة أخرى، ولا توجد مسالك سيكولوجية للحل بالنسبة لأزمة الهوية سوى تقبل التحول الرئيسي للإنسان المغتراب إلى إنسان حي". (فروم، 2010، صفحة 134)

وهذا ما يُعرّز ما ذهب إليه الفيلسوف الألماني "هربرت ماركوز" (Herbert Marcuse) في كتابه الإنسان ذو البعد الواحد، والذي أقرّ من خلاله أنّنا نواجه أبرز

مظاهر المجتمع ذو البعد الواحد، مجتمع لاعقلاني يقوم على الاستهلاك المُفْرط، ويلبي حاجات الأفراد، حيث تبلورت أشكالاً جديدة للحياة الإنسانية بفعل العامل التكنولوجي الذي خلق بنية اجتماعية جديدة. وحسب "هربرت ماركوز" فإنه بمقدار ما تُحوّل هذه الحضارة القائمة الأشياء إلى أبعاد جديدة للذات الإنسانية بقدر ما يصبح الاستلاب بالذات موضوعاً إشكالياً. حيث يُقرُّ أنّ في هذه المرحلة الحديثة الراهنة تبدّلت الآلية التي تربط الفرد بمجتمعه، حيث أصبحنا نواجه نوعاً من التّوحد المباشر بين الفرد (الذات المستلبة) ومجتمعه (الوجود المستلب). حيث يجد الأفراد أنفسهم في استهلاك كل ما يرفع من قيمتهم الاجتماعية الفردية ويكسبهم تقدير ذواتهم، ويُكيّف أسلوب حياتهم، حيث أصبحوا يتعرّفون على أنفسهم في مظهرهم الاجتماعي وبضائعهم ويجدون جوهر روحهم في سياراتهم، جهاز التلفزيون وفي بيئتهم الأنيق وأدوات طبخهم الحديثة. وهذا تغدو التكنولوجيا والشبكات الاجتماعية الافتراضية، بوصفها شكل من أشكال السيطرة والرّقابة الاجتماعية الراهنة الناقل الأكبر للتّشويُّ الذي بلغ أكمل أشكاله وأنجعها والذي يخضع لمنطق السيطرة والصفة اللاّعقلانية لعقلانيتها على الوجه الثاني للمرأة. (ماركوز، 1988، صفحة 45)

وحسب زيغمونت باومان "هؤلاء المستهلكون يتجولون في الممرّات المتعرجة داخل مراكز التسوق، يراودهم الأمل بأن يعثروا على علامة هوية أو علامة تجارية من شأنها أن تُحدّث ذواتهم وفق أحدث الصّيحات، كما يستحوذ عليهم توجس مخيف من إغفال اللحظة التي تتحوّل فيها علامة تجارية يتفاخرون بها إلى علامة يخلعون منها". (زيغمونت، 2016، ب، صفحة 61)

4. مظاهر الهوية السائلة في المجتمع الجزائري:

بيّنت بحوث ميدانية حديثة العهد أنّ الهوية في مجتمعاتنا المحلية، أضحت تتسم بالمرونة والسيولة والميوعة، نتيجة النمط الهجين والسائل للوجود وانضغاط الزمان والمكان وتماهي الواقعي في الافتراضي والارتحال نحو عالم الميتافيرس. إنّها هوية ما بعد الحداثة، هوية رخوة، مُبتدلة، سائلة، مائعة، تُبنى في اللامكان والالزام وخارج المجال الحضاري للمجتمع المحلي وجغرافيته. تُبنى بدون وعي وفي اللايقين وتحت تأثير طغيان الاستهلاك الذي تظهر في سلوكياتنا ومعتقداتنا، في وضع من التّماهي والتّواري والمرونة، مشحوناً بضخ ثقافي غيّري (رموز، قيم، ممارسات، موضات، معتقدات، أذواق، أفكار

وتوجهات وأيديولوجيات مُضمرة، تصوّرات ونماذج ثقافية مقولبة... وهلمّ جرّاً من خلال النفاذ بها إلى عقولنا عبر الوسائط التكنولوجية أو بالمعنى الأدق عبر الفضاء الميدياتيكي التواصلي المؤدّج، الذي غيّر من إدراكنا لذواتنا كما غيّر من وعينا بهويتنا، وأعاد تركيب الوضع الراهن للحياة الإنسانية في المجتمعات المحلية.

ومن بين أهم مظاهر الهوية السائلة في المجتمع الجزائري الثقافات الهجينة، إذ تُعد الأشكال الثقافية الهجينة الجديدة السائدة، مؤشرات دالة على تغيّرات جوهرية طالت مجتمعنا المحلي، طغت نتيجة التأثير البالغ لفضاء التدفقات السائل عبر الوسائط التشبيكية، والتي أثّرت في الهوية بذوبان عناصرها المحلية في الثقافة السائدة نتيجة التشظي الشبكي، وأبعد من ذلك، أصبحنا نعيش اغتراب ثقافي بفعل الحياة في المنطقة الرّمادية، ما بين ثنائيتين مُتناقضتين ثقافة محلية وأخرى وافدة تتسم بالمرونة، أفرزتها التدفقات الثقافية السائلة ذات الأبعاد الكونية، وخطابها المُغري وقوالها الجذّابة وآلياتها التمويهية، والتي تُمثل هجينا ثقافيا يطمس الخصوصية الثقافية ويستنبت هويات جديدة سائلة تُجسّد ثقافات هجينة وسلوكيات رخوة وقيم مُستمدة من الثقافات الغربية.

هذه الثقافات الهجينة حسب زيجمونت باومن "صورة مجازية تُضفي رونقاً أيديولوجياً ظاهرياً على التحرّر المزعوم من المحلية ومن الهويات المُسندة الجامدة... فالتّجهين صورة مُعدّلة تتلاءم مع الظروف المُتغيّرة التي يشهدها عصر ما بعد التّراتبية الحديثة في مرحلة السيولة... ويرمز إلى حركة تتّجه نحو هوية غير ثابتة، بل وغير قابلة للثبات، وغير مكتملة ومفتوحة بلا نهاية. والأهم من ذلك أنّها هوية يسهل التخلّص منها أو مراجعتها، وهذا ما يحول دون اتّخاذها شكلا صلبا مميزا. (زيجمونت، 2016، الصفحات 57-59)

وفي هذا السّياق وانطلاقا من أن خطاب العولمة المُفكك يقتضي ذوبان سمات الهويات الفردية، وصهر خصائص الثقافات، وتشظي القيم الاجتماعية الدينية والثقافية، في ظل هيمنة النموذج الثقافي الكوني السائد، وانعكاساته على المستويين الاجتماعي والثقافي. توفر دراسة تقييمية أجراها كل من: (شرارة وبوعامة، 2019) حول: واقع الهويات السائلة في سياق المثاقفة الجديدة معطيات غاية في الأهمية حول الهوية السائلة بطرح الرّهان الثقافي والمساس الرمزي بالهويات في إطار المثاقفة الجديدة عبر سياقات الوسائط

التشبيكية الجديدة. حيث هدفت إلى توصيف الروابط التجاسرية السوسيوثقافية بين ظاهرة التثاقف الافتراضي والهويات السائلة داخل المجتمع الجزائري. وقد توصلت الدراسة إلى أنّ التثاقف عبر الفضاءات الافتراضية أنتج هوية ثنائية القطب للفرد بين معايير وقيم ثقافتين مختلفتين؛ ثقافة محلية وأخرى وافدة. كما أحدث اضطراب هويتي برزت مظاهره في سلوكيات الفرد الاجتماعية وفي ثقافته بجانبها المادي؛ والذي يشمل تغير المظهر الخارجي للأفراد (ثقافة الملابس، تسريحة الشعر، القلائد والأقراط، الرسم على الجسد-الوشم-، ومنها ما يتعلّق بالجانب المعنوي؛ ويتجلّى في (العادات، التقاليد، الأفكار والسلوكيات). وهو ما يُعبر عن عملية صهر ثقافية زادت من حدة اغتراب الأفراد عن هويّتهم الثقافية المحلية. ويبدو في هذا السياق أنّ العولمة الثقافية قد غيّرت من آليات التثاقف في إطار التحالف بين الثقافة والتقانة الذي ساهم في تفكيك عناصر الهوية باستخدام أدوات اتصالية وظيفية فاعلة (المثاقفة الجديدة). فأصبح التثاقف آلية أحادية الاتجاه، تعمل على تذويب وتفكيك للثقافة المحلية، كما أصبح يتّخذ شكلاً صراعياً، يُعيق التفاعل المتبادل بين الثقافات المختلفة، ويعمل على تعميم نمط حضاري يعكس قيم وثقافة غربية على حساب الثقافة المحلية، نتيجة انسياب سمات الثقافة المُعولمة التي نستقي منها قيم وأفكار ورموز لا تُمت بصلة لبنيتنا الاجتماعية بدعوى التجديد. وبالتالي هيمنة فضاء ثقافي مُعولم يعمل على تجاوز الخصوصية وكسر الممانعة الثقافية في مقابل تنميط ثقافي وقيمي مُعولم، يُعيد هندسة العقول لصالح الحضارة الكونية ومنطق نموذجها الثقافي ومشروعها الأيديولوجي المُضمر، وبالتالي إلغاء الثقافة المحلية عبر تذويبها وتفكيكها. (عماد، 2016، صفحة 246)

وبالرغم من أنّ آليات التبادل والتفاعل الثقافي تعلن بشكل تمويهي عن "نهاية الأيديولوجيا وانتصار التكنولوجيا" لكن في الحقيقة لا توجد تكنولوجيا مُحايدة ومتحررة من القيم. إنّها الأيديولوجيا ترتدي عباءة التكنولوجيا، وتحمّل بين طيّاتها آليات إغراء وجذب تُغنيك عن تحليل محتواها بدعوى التحديث. إذ تُقدّم مصفوفة جديدة من القيم والمفاهيم والمعايير المضللة للوعي، وتدعم إمبريالية ثقافية تُكرّس للهيمنة. (عبد الغني عماد، 2016، ص 256)

إنّ مجرد افتراض عشوائي بأنّ التكنولوجيا مُجرد تقنيات وأنظمة خوارزمية محايدة فحسب، نكون قد أوهمنا أنفسنا عمداً باستخدام تكنولوجيا لا تُرَوِّج لقيم وأيديولوجيات مُنتجها. بل على العكس، إنها تُوجّه سلوكياتنا، وتُرسِّخ لأيديولوجياتهم في ثنايا تفاعلاتنا الاتصالية الافتراضية، كما وتحمل بين طياتها ترسانة معرفية وثقافية، تفرض تحديات وصراعات ورهانات جديدة، يكون فيها للتكنولوجيا والشبكات التواصلية المؤدّجة الدور الحاسم. فهي تُمثّل كيانات قوّة للهيمنة الناعمة، بما تُضمّره من محمولات ثقافية تُرَوِّج مُستترة لمضامين ثقافية وفكرية ودينية وقيمية كونية مُنمّطة تناسب بليونة وشيئا فشيئا إلى عقولنا في وضع من التّواري، وتجعلنا ننماهى طواعية مع جاذبية متاهات العوالم الافتراضية. وعلاوة على ذلك، يجب ألاّ نغفل على أنّ هذه المضامين والقيم والمعايير الجديدة ذات الأبعاد الكونية وسيّاقاتها الثقافية انعكست على التصورات والقيم الدينية وأدّت إلى تمييع رموز هويتنا في بُعدها الديني.

فقد توصّلت دراسة ميدانية أجراها (الجيلالي، 2018) حول: الخطاب الديني لمواقع اليوتيوب وأزمة الضبط المرجعي للتدين السائل. هدف من خلالها إلى فهم التغيرات السوسيودينية في ضوء التغيرات الحاصلة في المجتمع المعاصر وفي ظل سطوة وسائط الإعلام الجديد في المجتمع الجزائري، والتي أدّت إلى انفلات الفرد من الواقع والتأسيس لمرجعية بلا هوية عن طريق المرجعيات الوافدة عبرها. إلى أنّ: التدين قد أُعيدَ بناؤه عبر اليوتيوب الذي ساهم في انزلاقه من الصّلب إلى السائل، من خلال الخطاب الديني المعاصر وسياقاته الدّلالية عبر مختلف الممارسات الخطابية الدينية الافتراضية عبر موقع اليوتيوب -باعتباره قد أصبح المرجعية الأولى التي يستقي منها الأفراد معارفهم ومختلف التفسيرات والمعارف الدينية بقوالب وأنماط مختلفة- الذي ساهم في انعتاق التدين وتحرّره من المرجعيات الدينية التقليدية الصّلبة. حيث تحولت المعرفة الدينية إلى سلعة في سوق دينية افتراضية تُرَوِّج لمختلف القيم والمعتقدات والتّوجهات الدينية التي ترسم نمط جديد من التدين (التمط الديني السائل) والذي يتلاءم مع الهوية السائلة للشباب.

كما أفضت دراسة ميدانية أخرى وفي نفس المسألة كانت قد أجريت من طرف (الجيلالي، الجيلالي، و بن يمين، 2021) حول: التدين الميديولوجي الجديد وأزمة الهويات الدينية السائلة. إلى أنّ التغيرات السوسيودينية في الفضاءات العمومية أدّت إلى بروز نمط

تدين ميديولوجي جديد، توسّعت مضامينه في الفضاءات الافتراضية وفق الفعل التّواصلي الميدياتيكي، والذي أدّى إلى تشكّل التّدين السائل، نتيجة الطبيعة الاستهلاكية التي يتميز بها التّدين الميديولوجي الجديد والتي أدّت إلى تشكيل الهوية السائلة للشباب. كما أنّ كثافة التّعرض للقضايا الدينية عبر التّدين الميديولوجي الجديد نتيجة طغيان المضامين الدينية التي تفرضها الاستراتيجيات الاقناعية التي تتميّز بها وسائط الإعلام الجديد، أدّت إلى تشكيل الهويات الدينية السائلة، وإنتاج خطاب ديني رقمي مُضاد بما يحمله من تصورات وأفكار وتفسيرات جديدة عبر مختلف الأنساق الفكرية والعقائدية والتي تُعيد بناء أنماط التّدين. ومن هذا المنطلق يُمكن القول أنّ معالم مجتمعنا المحلي أصبحت تطفئ عليها السيوالة والهشاشة المُفرطة، وما تمخّض عنها من تصوّرات لا تنتهي البتّة لمجتمعنا إلى الحد الذي انفردت فيه معتقداتنا وسلوكياتنا وتفسّخ النسيج الاجتماعي والثقافي السائد داخل مجتمعاتنا المحلية، واختلطت المعايير، ونُخرت فيه المنظومة القيمية للمجتمع، وما نتج من تمظهرات في السلوك وفي المعتقدات من خلال رموز ثقافية وافدة ساهمت بشكل أو بآخر في تغيير نمط حياتنا وأدّت إلى تمييع رموز الهوية المحلية ذات الخصوصية الاجتماعية، القيمية، الدينية والثقافية وحتى تفكيك شبكة العلاقات الاجتماعية السائدة. إنّ تأملا بسيطا في مجتمعنا المحلي يُفضي بنا لا محالة إلى ملاحظة، وبرؤية أكثر وضوحا من ذي قبل- ما آلت إليه هويتنا من هشاشة وتفكّك، إنّنا فعلا نعيش أزمة هوية.

وفي هذا الصّدّد يُمكننا أن نقتبس قول الدكتور المغربي العياشي الفرفار "إنّ شباب اليوم عاجز حتّى على التّحكّم في سرواله نتيجة غياب الحزام، وغير قادر حتى على المضغ". كناية عن تحول المجتمع إلى مجتمع استهلاكي بحث والاتكالية المنسوبة إلى التبعية الاستهلاكية وفرد استهلاك الرموز الثقافية والحركة الانسيابية للسلعة الثقافية في ظل مجتمع الوفرة التكنولوجية وحمولته الثقافية التي تغلغت في مفاصل حياتنا اليومية بفعل الاتاحة الرقمية عبر طوفان رقمي لجيل رقمي يتمتّع بلياقة رقمية. هذا الجيل فقد الإحساس بذاته وبكينونته، التي أصبحت رهن نموذج ثقافي تُوَدّي أطره إلى منافذ مسدودة تنصهر في رحابها الهوية، في مشهد أقل ما يقال عنه أنّه يُلغي حق التعددية والتنوع الثقافي ويُرسّخ لهيمنة أقل ما يُقال عنها أنّها مفردة للغاية للحد الذي انفردنا فيه. ولا يزال الأمر كذلك

وسيبقى كذلك ما لم تُعد التفكير في بناء ذاتنا وهويتنا على نحو مغاير يتماشى مع مُجريات التحوّلات الجارية التي نعيش غمارها في الوقت الراهن.

وتماهيا مع توصيف "زيغمونت باومان": "فإنّ من يُمارسون هذه الحالة الجديدة من ميوعة الدّات عادة ما يُصنّفونها بأنّها حرية، بيد أنّ امتلاكهم هوية مائعة يستمتعون بها حتى إشعار آخر ليس من الحرية في شيء، فإذا لم تُعد الهوية تركة ثقيلة، يُرجى دوامها وإذا لم تُعد الهوية التزاما لا نهائياً تجاه شيء يُرجى دوامه إلى الأبد، فلا بُدّ من أن الهوية تحوّلت، بل إنّها تحوّلت بالفعل، إلى محاولة لا تنتهي أبداً ويعتريها غموض مثير. حيث تنجرف الهوية مع تيار الأحداث واحداً تلو الآخر، من دون وعي بمآلاته ولا مقاصده". (زيجمونت، 2016ب، صفحة 59)

5. آليات الحفاظ على الهوية:

يؤكد عبد الغني عماد على فكرة مُؤداها أنّه طالما أنّ الثقافة هي النّواة الجوهرية للهوية فإن أي خطر قد يُداهم الثقافة يستتبع حتماً تأثيرات قد تُشكّل تهديداً للهوية في بُنياتها الجوهرية. ولهذا فإن الحفاظ على الثقافة يُعدّ الآلية الأكثر قدرة على المواجهة والتصدي لتأثيرات مرحلة ما بعد العولمة. وحسبه فإنّ الثقافة ظاهرة اجتماعية لا بدّ لها كي تنجح في المقاومة أن تنصهر وتتفاعل وتترسّخ. خاصة في ظل التحوّلات الجوهرية: الاجتماعية، الاقتصادية، السياسية، التقنية... الخ. وهذا يستوجب أن تكون الثقافة دينامية وحيوية وتتجدد باستمرار، لتلافي آليات التبعية وتحصين الهوية وجعلها أكثر صلابة ومتانة، لسبب مرّده وجود كيانات ثقافية خارجية أكثر دينامية وحركية وأكثر انسيابية، تستوعب الهوية وتدمجها بل وتطمس وجودها. وطالما أنّسّمت الهوية بالجمود والرّكون والتّكلس، تصبح أكثر قابلية للتفكّك وأكثر عُرضة للذوبان والانصهار والسّيولة. (عماد، 2016، صفحة 256)

وفي المسألة نفسها يذهب عبد الغني عماد إلى ضرورة تبني سياق معرفي جديد يتناسب ومعطيات الأزمنة الحالية خلال عملية الدفاع عن الهوية وإعادة بنائها، وضرورة النهوض بثورة ثقافية كفعل تنويري من خلال تأسيس منظومات ثقافية متحرّرة من سلطة التقليد، وغير منغلقة على ذاتها، وتجديد القوى الحيّة في المجتمع لرفع مستويات الاقتدار من أجل خلق وعي ثقافي جديد يتجاوز الحالة الإغترابية، أو الاستلاب الثقافي، كما يستوعب الثورة المعرفية والثقافية ويتّخذ موقف تُجاهها، دون أن تصطدم معها وتتميّع هويتها

وخصوصيتها الثقافية على غرار ما فعلته باقي المجتمعات. ويؤكد على إلزامية العمل بمنطق التجديد وفق ديناميات "الاستيعاب والتجاوز". وحسبه فإنّ الهامشيّة والانعزال تُعزّزان الاستتباع والتبعية، وتؤديان إلى الجمود في ظل السعي إلى المحافظة عليها، ممّا يستوجب ضرورة التحلّي بالإرادة والتّحفي بروح التنافس والمشاركة والمواجهة في ظل معركة بناء الإنسان وتجديد الذات. (عماد، 2016، صفحة 258، 259)

كما يؤكد حسن شحاتة على نقطة جوهرية مفادها ضرورة امتلاك خصوصية ثقافية وتهيئة فكرية، تستند إلى وعي فردي وجمعي، إذا ما أردنا الانفتاح على الثقافات الأخرى، وإلا فإنّ هويتنا ستعرض إلى تغيرات عميقة في جوهرها بقوله: "... إنه بدون هوية ممثلة بمقوماتها، قادرة على التجديد ومواكبة مسارات التغيير في سياق لا يخرج بها عن جوهرها في أثناء تفاعلها مع الآخر، يكون الانفتاح على الثقافات المهيمنة مدعاة للانزلاق نحو الوقوع فريسة الاستلاب...". (شحاتة، 2008، صفحة 68)

وفي هذا المساق يؤكد لؤي علي خليل على أنّه من الآليات التي من شأنها الحد من هيمنة النموذج التغييري للهوية بفعل التأثير العولمي، ومواجهة تيارات الهويات والثقافات السيّالة المرنة، العمل على تحصين الهوية من خلال خلق منظومة فكرية وقيمية تعمل على تعزيز التفكير المعياري والأنظمة المعيارية، ذلك أن الهويات والثقافات ذات الأنظمة المعيارية تتّسم بقدر من الصلابة التي تجعلها بمنأى عن التأثيرات التي قد تصيب بنيتها الجوهرية. وكذا إعادة مساءلة جوهر الهوية الذي يمنحها خصوصيتها، وبحث الأسس المرجعية المؤسسة لهذه الخصوصية. ووفق هذا السياق، لابد أن تكون للهوية نواة مركزية صلبة، وأن تتأسس وفق بنية معرفية معيارية، تقوم على القيم الثقافية والفكرية كمحددات للسلوك المعياري، وتعمل وفق نماذج وأنماط ثقافية، حيث تتحرك الهوية وفق معايير وقواعد سلوكية خاضعة لديناميات الضبط الاجتماعي الذي يُساهم في تحديد مسارات حركتها وتبدّلها، حيث تستوعب الهوية التغيّرات وتواكب المستجدات والتطوّرات، دون أن يؤثر ذلك على بُناها الجوهرية أو جوهر نظامها المعياري. كما يجب أن تتّصف بقدر من الثبات (في خصوصيتها ومركزها) والمرونة (في مظاهرها)، فتصبح ثابتة متحركة في آن، ممّا يكفل لها القدرة على المواجهة الإيجابية لمختلف التأثيرات العولمية والمحافظة على

خصوصيتها، في ظل سيطرة النموذج الثقافي والحضاري الكوني. (خليل، 2018، الصفحات 135-137)

وكنقطة مفصلية يجب التنويه إلى أنه في ظل هذه الأوضاع الصاخبة الزاهنة التي تشهدها مجتمعاتنا المعاصرة، نتيجة التطورات والتحوّلات الجوهرية الحاصلة، يمكننا القول أنّ بقائنا في حالة من الانغلاق الثقافي والجمود الفكري والدوغمائية، لا نقبل فيها الآخر مع ممانعة ثقافية، وغض الطرف عن الآخر والانكفاء على الذات، والتشبّث بالفكر الذي يعوق عملية التحوّل والتغير في محاولتنا للتصدّي وتحسين الذات والمحافظة على الهوية بحجة الخصوصية الثقافية والمرجعيات الفكرية والخلفيات الأيديولوجية وما طرحه في مجملها من إشكاليات يمكن أن يُنتج مجتمعات مُغلقة على نفسها، في عصر أصبحنا نُسلّم فيه بحتمية التماهي والانفتاح على الحداثة ومواكبة منعطف مسارات النموذج التغييري الذي رسمت ملامحه الحادة متغيّرات بنيوية وتحوّلات كبرى نتيجة طفرة تقنية ومعلوماتية يبدو أنّها تجرّنا قسرا لخوض غمار التّحديث والانفتاح والتّماهي مع الزّمن المائل في الفضاء المفتوح، وعدم الركون إلى التبعية ومنطق الاستلاب والانعقاد منه.

وحسب علي حرب "فإنّ ثمة نرجسية عقائدية تطفى على طريقة ممارستنا لهويتنا... حيث نتعامل مع الهوية بمنطق الحراسة والمدافعة، فنزداد ضُعفا ونخسر ما نريد المحافظة عليه، بقدر ما نفقد حيويتنا الفكرية وطاقتنا على المبادرة الفعالة. فحراسة الأفكار هي مقتلها، وانغلاق الهويات علامة على ضعفها. أما الهوية القوية فهي القدرة على التوسع والانتشار، عبر عمل نقدي فعال، يطال المُسلّمات والثوابت ويكسر القوالب والنماذج، بقدر ما يُجدّد القيم والمعايير..." (حرب، 2004، صفحة 23)

وهذا ما يستدعي ضرورة التلاحق الثقافي ممّا يستوجب إعادة إنتاج نمط ثقافي وفكري جديدة ينسجم مع البرادغم المعرفي الجديد، بما أنّ المعرفة تُعتبر ترياق المواجهة، الذي يُمكننا من توليد رؤى وآليات فكرية تتماشى مع الثقافة الكوسموبوليتانية التي تعمل على ترويض المجتمعات. وهذا يعني ضرورة خلق منظومات فكرية وثقافية تعمل على تسويق طرح فكري جديد لتصورنا للهوية، يتخطّى التّصورات التقليدية للهوية، ويتجاوز تلك الطروحات الفكرية التي تدعو إلى المقاومة والممانعة للتّوجهات الما بعد حداثة، ونحن لا نقصد هنا

التّمرد أو التخلي عن مرجعياتنا الصّلبة التي تؤسس لهويتنا المعيارية. بل تنوير الأسس المرجعية التي تدعو إلى الانغلاق وعدم الانفتاح على الآخر ومسايرته بدعوى الخصوصية . وقد ذهب "علي حرب" إلى أبعد من ذلك حيث أكّد أنّ: "الإمكانية المتاحة هي إخضاع خطاب الهوية للنقد، من أجل التحرر من العوائق التي تولد العجز والاختفاق، وذلك يحتاج إلى تغيير نمط التعامل مع هوياتنا، بحيث نُقيم مع الأصول والثوابت علاقة متحركة وتحولية... بهذا المعنى نحن لا نحتاج إلى الدفاع عن هويتنا، بقدر ما نحتاج إلى عمل منتج نتجدد به بقدر ما نزداد تجذراً". (حرب، 2004، صفحة 24)

ولأنّ الهوية بصفتها الراهنة لا تقوى على الصّمود أمام النموذج التغييري الراهن ومخاضاته العسيرة، لابدّ من تحديد الأهداف بدقّة من أجل خلق بدائل ووضع آليات أكثر قدرة على خوض غمار المواجهة مع السيل الجارف للقيم الكونية الحديثة وتستوعب الحداثة السائلة وامتداداتها بنفس الشدّة التي تستوعب بها انتمائنا الحضاري العربي، وخصوصيتنا الثقافية والحضارية ومورفولوجيتنا الاجتماعية التي تميّزنا عن الآخر، كما يجب تكثيف الجهود لإعادة إنتاج وعي هويتي جمعي، يستوعب التباينات الثقافية ويتماشى ويساير الحالة الراهنة لهذا الزّمن ما بعد العادي السائل. كما يُشجع على الاندماج في مسارات التحديث ومُنعطقاته وتكريس التفاعل بين المجتمعات وإعادة صياغة ممارسات اجتماعية تنسجم ومتطلبات العصر الراهن، كما تتماشى مع أفق التغيير المنشود وضروب المعطيات الكونية، ويكون فيها للنّخب المثقفة والمُسيّرة الدور الفاعل في السّاحة الفكرية العربية. حيث تعمل هذه النّخب على خلق هندسة اجتماعية تعمل وفق رؤية نقدية من زاوية مُنفرجة وتبني موقف اتجاه هذا التحديث بُغية المُروق من المأزق الذي تُعانيه الهوية بأقل التأثيرات، والقدرة على مُجابهة أزماتها الراهنة وحتى مُعضلاتها المستقبلية.

وهذا ما يؤكده عبد الغني عماد بقوله: "... ترتبط الهوية بالجماعة بُنيويًا... هوية الجماعة تُعيد تشكيل هوية الفرد بطريقة أكثر فاعلية في حالتين: الأولى تتمثل بالتهديد الخارجي، وهذا ما نلمسه اليوم في ما يُسمى بخطر العولمة أو صراع الحضارات وبروز الخصوصية الثقافية، والثانية تتمثل بالوعي بالهوية، ذلك أنّ الجماعة يتضاعف تأثيرها في الأفراد إذا تطابقت الهوية مع مجالها الحضاري، أمّا إذا تعرضت الجماعة إلى تغيرات طالت مجالها الحيوي والجغرافي وأدى بها ذلك إلى التشتت ...، فإنّ هذا الواقع

يضعها أمام خطر التشتت الثقافي، ما لم يتم تفعيل دينامية الوعي بالهوية والانتماء إلى الجماعة". (عماد، 2016، صفحة 111)

خاتمة:

إن مجرد نظرة متأنية تكشف لنا أنَّ الهوية حتى وإن تأسست على مبدأ معياري، حتى وإن كانت تتصف بقدر من الثبات والصلابة والتفرد والخصوصية، حتى وإن استندت إلى تركة ثقافية محلية، حتى وإن كانت ذات ثوابت عديدة...، إلا أنَّ هذا لن يمنعها من أن تكون دينامية وانسيابية، هذا لأنها لن تكون بمعزل عن ديناميات التغيير وحركته الدؤوبة، وتأثيراته السريعة الإيقاع وتطوراته الدراماتيكية، التي تشهدها مجتمعاتنا الزاهنة ويفرضها فضاء التدفقات المعرفية والثقافية والتقنية والذي عمل على تقويض كافة التصورات الكلاسيكية للهوية (الثبات والاستاتيكية، الديمومة والاستمرارية) التي تتصف بها، وتفعيل الوضع الديناميكي الجديد عبر مختلف الأقنية والمصادر التي تدب فيها كل الخصوصيات وتتفكك عبرها ثوابت الهوية ويمكن أن تجعلها متشظية، مجزأة، متحوّلة ومُتغيّرة باستمرار نتيجة مدّ التغير البنيوي الذي طال المجتمعات المحلية، بل وقابلة للذوبان والتميع والمراجعة وإعادة التشكيل مراراً وتكراراً.

ولقد سعينا جاهدين في هذا المقال لملامسة مختلف جوانب الهوية السائلة وعرض مسار تشكّلها وأهم تجلياتها ورهاناتها، حيث طرحنا من خلال هذا المقال طائفة من الأفكار حاولنا عن طريقها التغلغل في مسألة الهوية السائلة. ويمكننا القول أنَّه كلما ازدادنا إغفالاً في بحث مسألة الهوية اتّضح لنا ومما لا شكّ فيه، أنَّ آليات الحفاظ على الهوية الصلبة هي آليات مُستعصية التنفيذ إن لم نقل مُستحيلة؛ وهذا راجع حتماً إلى اختلال النُظم المعيارية القائمة داخل مجتمعاتنا المحلية، حيث تزعزعت البُنى العميقة التي تُشكّل الهوية، في عصر أقل ما يقال عنه أنه عصر سُودد الحتمية الكونية التكنولوجية وهيلمانها، والتي أثّرت على القُضّ والقضيض. عصر أنشج بوشاح الحتمية التقنية، حيث هيمنت هذه الحتمية على الدّات البشرية بفعل جبروتها وذروتها، وقدرتها على صناعة المشهد الكوني، حتّى أصبحنا ذوات سايبورغ "Cyborgs"، أصبحنا ذواتا معدّلة بالتكنولوجيا إن صحّ التعبير نتيجة الخضوع التام للتقنية وافرازاتها -باعتبارها الدين الجديد حسب توصيف "أريك فروم"- في

ظروف تتسم باللايقين المُزمن ومتلازمة الاستهلاك التي تعاني منها مجتمعاتنا المحلية. إنَّها فعلا مجتمعات الافراط في الاستهلاك كما يُسميها "جيل ليبوفتسكي" في ظل فضاء التَّدفقات الذي يخلق تراتبية جديدة للهيمنة والسيطرة النَّاعمة. إلى هذا الحد وأكثر أصبح الإنسان خاضع لحتمية صارمة، فتأكَّة؛ تذيب كل ما يعترضها وتُلقي به في بوتقة الصَّهر، أو تُلغيه نهائيا وتُلقي به في سَلَّة المهملات والاعلان عن عدم صلاحيته وتخلُّفه عن الركب. إنَّنا نعيش عصر سائل، يمكن فيه للفرد أن يحمل هوية بأربعين وجها، كناية عن تبنِّيهِ لهويات متعددة وغير متجانسة، تحمل توليفة من الثقافات والقيم المختلفة في الوقت ذاته، كما يُجادل في ذلك "داريوش شايفان". عصر قائم على صراع بين عدة ثنائيات؛ الثابت والمتغير، الذات والغيرية، الواقعي والافتراضي، الصَّلابة والسَّيولة... الخ، ناتجة عن الانغمار في طوفان رقمي. عصر طغت فيه النهايات كَتَبِعات للحدائث السَّائلة نهاية التاريخ، نهاية الأيديولوجيا، نهاية المجتمع، نهاية الإنسان، نهاية العالم بل ونهاية المستقبل أيضا كصورة مجازية للتعبير عن التَّغيُّر الأُمِّي السريع البدايات المُتتالية والنَّهايات المُباغتة التي تسبق الوقت اللازم لتشكُّله.

ومن باب تحصيل الحاصل تجذر الإشارة إلى أنَّه حتى لو سلَّمنا جدلا بدور الحفاظ على الثقافة من أجل الحفاظ على الهوية ومجابهة تحدياتها من فخاخ العولمة، فإن هذا لا يكفي في ظل الصَّيرورة الحتمية لسَّيولة الهوية، في كنف عالم لم نشهد له مثيلاً من قبل؛ عالم لايزال يتشكل وتتشكل معه مفاهيم وقيم ما بعد حداثة جديدة كلياً. عالم أقل ما يُقال عنه أنَّه مُتحوّر نتيجة طفرة من التَّطوُّرات والتَّحوُّلات الحاصلة فيه. فكيف يُمكن أن نتعاطى مع التَّغيرات والتَّحوُّلات التي تطال هويتنا ولا تسمح لها بالاستقرار، ومع مختلف التَّصدُّعات الحاصلة-امتدادات السَّيولة-التي تشهدها عوالمنا المعاصرة التي تسودها حالة من التناقضات والفوضى والأزمات؟ والحيلولة دون أن نُستبدَّ رقمياً، ونستطيع نمذجة مجتمع متمائل معيارياً في هذه الأزمنة ما بعد الاعتيادية المُثيرة للتَّقَصِّي المستفيض وعن كتب.

قائمة المراجع:

1. إنغليز، ديفيد. وهيوسون، جون. (2013). مدخل إلى سوسيولوجيا الثقافة. (تر: نصير، لما). (ط1). بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

2. بارني، دارن. (2015). *المجتمع الشبكي*. (تر: الجمعاوي، أنور). (ط1). بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
3. بكر، ياسر. (2022). *الإنسان "السائل": بين "إيماضة الخمود" في الفكر الخلدوني و"نظرية السوائل" لزيجمونت باومن*. (دط). مصر: د.د.ن.
4. هارلمبس، وهولبورن. (2010). *سوسيولوجيا الثقافة والهوية*. (تر: حميد محسن، حاتم). (ط1). دمشق: دار كيوان للطباعة والنشر والتوزيع.
5. هيربرت، ماركوز. (1988). *الإنسان ذو البعد الواحد*. (تر: طراييشي، جورج). (ط3). بيروت: منشورات دار الآداب.
6. زيجمونت، باومان. (2016أ). *الحداثة السائلة*. (تر: أبو جبر، حجاج). (ط1). بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.
7. زيجمونت، باومان. (2016ب). *الحياة السائلة*. (تر: أبو جبر، حجاج). (ط1). بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.
8. زيجمونت، باومان. (2017). *الأزمنة السائلة-العيش في عصر اللابيقين*. (تر: أبو جبر، حجاج). (ط1). بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.
9. حرب، علي. (2004). *حديث النهايات-فتوحات العولمة ومآزق الهوية*. (ط2). الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي المغربي.
10. ساردار، ضياء الدين. (2018). *الأزمنة ما بعد العادية: نموذج معرفي جديد في الدراسات المستقبلية*. (تر: العربي، محمد). (دط). الإسكندرية، مصر: مكتبة الإسكندرية.
11. عماد، عبد الغني. (2016). *سوسيولوجيا الثقافة: المفاهيم والإشكاليات... من الحداثة إلى العولمة*. (ط3). بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
12. عماد، عبد الغني. (2017). *سوسيولوجيا الهوية: جدليات الوعي والتفكك وإعادة البناء*. (ط1). بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
13. فروم، إيريك. (2010). *ثورة الأمل: نحو تكنولوجيا مؤنسنة*. (تر: عبد المنعم، مجاهد). (ط1). القاهرة: مكتبة دار الكلمة للنشر والتوزيع.

14. شحاتة، حسن. (2008). *الذات والآخر في الشرق والغرب صور ودلالات وإشكاليات*. (ط1). القاهرة: دار العالم العربي.
15. أبو جبر، حجاج. (2022). هل من مكان للهوية في عالم معولم؟ استكشاف "الهوية السائلة" عند زيغمونت باومان. *مجلة تبين، المجلد 11* (ع41)، ص ص 154-173.
16. الجيلالي، رقاد. (2018). الخطاب الديني لمواقع اليوتيوب وأزمة الضبط المرجعي للتدين السائل. *مجلة الدراسات الإعلامية* (ع5)، ص ص 27-48.
17. الجيلالي، رقاد. الجيلالي، كرايس. وبن يمينه، راشدي. (2021). التدين الميديولوجي الجديد وأزمة الهويات الدينية السائلة. *مجلة سوسيولوجيا، المجلد 05* (ع01)، ص ص 47-70.
18. كوفر، روب. (2022). الهوية في زمن كورونا المضطرب: الأدائية والأزمة والتنقل والأخلاق. (تر: أبو جبر، حجاج)، *مجلة تبين، المجلد 11* (ع41)، ص ص 201-220.
19. شرارة، حياة. وبوعمامة، العربي. (2019). واقع الهويات السائلة في سياق الثقافة الجديدة-دراسة تقييمية-. *المجلة الجزائرية للأمن الإنساني، المجلد 05* (ع01)، ص ص 680-702.
20. خليل، لؤي علي. (2018). فتنة العولمة وسؤال الهوية (الهويات المعيارية والهويات السائلة). *Journal of divinity faculty، المجلد 05* (ع01)، ص ص 123-145.
21. Castells, M. (2004). *The Network Society: A Cross-cultural Perspective*. Northampton, MA, USA.: Edward Elgar Publishing.
22. Giddens, A. (1990). *The consequences Of Modernity*. Cambridge, UK: Polity Press.
23. Polettiand, A. & Rak, J. (2014). *Identity Technologies: Constructing the Self Online*. USA: The University of Wisconsin Press.
24. Stalder, F. (1998). The Network Paradigm: Social Formation in the Age of Information. *The Information Society Journal*, 14(4), pp. 301-308.